الفصل الأول

الهنود الحمر.. التاريخ.. والإبادة!!

تأسست الثقافة الأمريكية[1] على عدد من الأفكار والأساطير التي يصعب بدونها فهم هذه الثقافة خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.. أو التدخلات العسكرية.. أو الاقتصادية.. وفي مقدمة هذه الأساطير مقولتان هما "القدر الواضح" و"مدينة فوق التل".

أمريكا تلعب دور "المسيح السياسي"

الأسطورة الأولى تتمثل في قيام أمريكا بدور "المسيح السياسي" الذي جاء لإنقاذ العالم.. وأن المستعمرين البيض هم أناس اختارتهم السماء كي يحتلوا العالم الجديد.. ويقوموا بمهمة خاصة هي نشر النور للإنجيل في كافة أرجاء العالم.. هذه الأسطورة حددت باختصار إرادة الله ومجرى التاريخ ومصير شعب مختار من قبل الرب.

مدينة فوق التل

أسطورة «مدينة فوق التل» تعود إلى منتصف القرن السابع عشر عندما أخبر «أول حاكم لمستعمرة ماساتشوستس» وكان يدعى جون وينثروب مجموعة من البيوريتانيين «المتطهرين» الذين كان يقودهم بأنهم في رحلة لا يباركها الرب فحسب بل إنه أيضاً يشارك فيها.. وقال: سوف نجد رب إسرائيل بيننا.. لابد أن نضع في اعتبارنا أننا سنكون كمدينة فوق تل تتطلع اليها عيون الناس جميعا".

ووفقاً للأسطورة وظلالها فإن المعادين للإدارة الأمريكية يصيرون "أعداء ليس للحرية والديمقراطية والفضيلة فحسب وإنما هم أعداء الرب أيضاً" واستشهد في ذلك بقول الروائي الأمريكي الشهير هيرمان ميلفيل:

"نحن الأمريكيون متفردون وشعب مختار.. إننا إسرائيل زماننا.. نحمل سفينة حريات العالم.. ولطالما شغلنا سؤال عما إذا كان المسيح السياسي قد جاء.. ولكني الآن أقول أنه جاء متمثلاً فينا.. ولا يبقى سوى أن نعلن خبر مجيئه"

(١) هذا وفقاً لما جاء في مقدمة المترجم بالجزء الأول لكتاب «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة».. الذي ترجمه إلى العربية شعبان مكاوي أستاذ اللغة الانجليزية بجامعة حلوان بالقاهرة وصدر في مجلدين عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر... توفي المترجم في ١١ مايو ٢٠١٠.

الفقرات السابقة من مقدمة كتاب يحمل عنوان «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة».. لمؤرخ أمريكي معاصر يدعى (هوارد زن إن) سنتوقف كثيراً عند كتاباته الخاصة بتاريخ بلاده الأسود.. ويشير مؤلف الكتاب إلى أنه بعيداً عن التاريخ الرسمي.. أراد بكتابه أن يوقظ "وعياً أكبر" بالصراع الطبقي.. والظلم العِرقي.. وعدم المساواة الجنسية والغطرسة القومية في الولايات المتحدة.. مؤكداً أن مشكلة العنصرية ما تزال قائمة.

وتوقف المؤلف الأمريكي طويلاً أمام التاريخ الذي وصفه بأنه غير رسمي لبلاده منذ أن وصلها كولومبس باحثاً عن الذهب في آسيا فوصل إلى شواطئ جزر الباهاما حيث قابلهم الهنود الحمر من قبيلة أراواك الذين لم يكونوا يختلفون "عن أي هنود آخرين في العالم الجديد فكلهم معروفون بالكرم والإيمان بمشاركة ما يمتلكون مع الآخرين".

وقال أن كولومبس أبحر بعد ذلك إلى كوبا.. ثم إلى هيسبانيولا وهي الجزيرة التي تشمل اليوم كلا من هايتي وجمهورية الدومنيكان.. ثم كتب تقريراً إلى ممولي رحلته ملك وملكة أسبانيا قائلاً:

"إن الرب الخالد يمنح النصر للذين يسلكون طريقه مهما كانت الصعاب"

ثم بدأت إبادة السكان الأصليين حيث كان يتم "اختطاف النساء والأطفال كعبيد وكوسيلة لتحقيق المتعة الجنسية وتلبية الحاجة للأيدي العاملة".

وأضاف أن هايتي كانت قاعدة لاصطياد الهنود الذين مُلِئت بهم سفن عائدة إلى أسبانيا حيث كانوا يعرضون للبيع في مزادات يشرف عليها الشمامسة.. وكتب كولومبس.. "دعونا باسم الثالوث المقدس نستمر في إرسال ما نستطيع بيعه من العبيد".

وأشار إلى أنه "خلال عامين مات حوالي نصف سكان الهنود في هايتي وعددهم الأصلي ٢٥٠ ألف نسمة.. إما عن طريق القتل أو الانتحار.. وكان يتم تسخيرهم بوحشية في ضياع شاسعة.. وبحلول عام ١٦٥٠ لم يعد على الجزيرة أحد من هنود أراواك الأصليين" بعد أن كانوا عددهم ربع مليون نسمة.

وأشار المؤرخ الأمريكي إلى أنه حصل على معلوماته عما حدث في جزر الكاريبي بعد وصول كولومبس مما كتبه قس شاب يُدعى "لاس كاساس" شارك في غزو كوبا.. ثم تخلى عن مزرعة له كان يعمل فيها عبيد هنود "وأصبح ناقداً حاداً للوحشية الأسبانية.. هو المصدر الوحيد بشأن أمور كثيرة.. وبدأ وهو في الخمسينيات من عمره في كتابة مؤلفه «تاريخ الجزر الهندية» في أكثر من مجلد.. ونقل المؤلف عن كاساس وصفه لكولومبس أنه "كان متهوراً إلى حد العمى.. وكذلك من أتوا بعده.. لقد كان همه أن يسعد الملك «في أسبانيا» فارتكب ما لا يغتفر من الجرائم في حق الهنود.

وكان الأسبان يرفضون السير على أقدامهم حتى لو لمسافات قصيرة.. ويتخذون من ظهور الهنود مطايا.. أو يجلسون على محفات يتناوب الهنود حملها.. وكان على نفر من الهنود أن يحملوا فروعاً من الشجر كثيفة الأوراق يحمون بها راكبي المحفات من لفح الشمس.. بينما كان على آخرين أن يتخذوا من أجنحة الأوز مراوح تلطف الجو للراكبين.

ولم يهتز للأسبان طرف وهم يطعنون عشرات الهنود ولم تهتز ضمائرهم وهم يقتطعون من أجساد الهنود شرائح كي يختبروا بها مدى حدة نصالهم.. ويحكي في كتابه أنه قد تقابل ذات مرةٍ ولدان مسيحيان مع ولدين هنديين يحمل كل منهما ببغاء.. فما كان من الولدين المسيحيين إلا أن أخذا الببغاءين لنفسيهما بالقوة.. وعلى سبيل التسرية والمزاح قاما بضرب عنقي الولدين الهنديين.

وسخر(هوارد زِن) من سذاجة الفكرة القائلة أن ارتكاب "الفظائع" ضرورة وثمن كان لابد من دفعه من أجل التقدم.

وقال أن البريطانيين أيضاً قرروا إبادة الهنود حين عجزوا عن استعبادهم أو العيش معهم منذ العام الأول لوجود الرجل الأبيض في فرجينيا سنة ١٦٠٧.

وأضاف أنهم استوطنوا جنوبي ما يعرف الآن بولاية كونيتيكت.. وكانوا يتفننون في وسائل إبعاد الهنود.. حتى لو ارتكبوا ضدهم المذابح.. أو حرقوهم في أكواخهم.. وذات مرة كان نصيب من هربوا من النيران هو القتل بالسيف حتى صار بعضهم مجرد أشلاء.. ووصف معاصر لتلك المذبحة أن "النصر بدا كفداء

جميل.. وتم تقديم الشكر إلى الرب الذي كان عوناً عظيماً ورائعاً.. وكما جاء في مذكرات عالم اللاهوت البيوريتاني الدكتور «كوتون ماثر» أنه يفترض أن عدد من ذهبوا إلى نار جهنم في ذلك اليوم لا يقل عن ستمائة".

وذكر المؤلف أن عدد الهنود الحمر عام ١٤٩٢ بلغ ٧٥ مليوناً منهم ٢٥ مليوناً تقريباً في أمريكا الشمالية وأنه "قبل مجيء المسيح بألف عام وفي الوقت الذي كانت فيه مصر تشيد فناً ومعماراً عظيمين كان هنود (نيو مكسيكو) يشيدون القرى والمباني".

وبمجيء زمن يوليوس قيصر.. والمسيح قامت في منطقة وادي (أوهايو) حضارة من أطلق عليهم بُناة الروابي[1].. بلغ ارتفاع إحدى الروابي مائة قدم.. وتكبر قاعدتها المثلثة عن قاعدة هرم مصر الأكبر".

وانتهي المؤلف إلى أن "كولومبس وأتباعه لم ينزلوا أرضاً خالية لكنهم نزلوا عالماً يعج بالكثافة السكانية.

الهنود تحت المقصلة

إذن شاء القدر أن يُبتلى الهنود الحمر بالقسط الأوفر من الإبادة والاستعباد.. فقد كان اكتشاف الأمريكتين- بالتزامن مع الثورة الصناعية – كارثة كبرى حلت بعشرات الملايين من سكان أمريكا الأصليين.. والذي حدث هو أن عصابات البيض التي وصلت أمريكا وجدت مساحات هائلة من أخصب أراضي العالم البكر بحاجة إلى عشرات الملايين من الأيدي العاملة التي تعذر عليهم تدبيرها من أوروبا.. ولذلك فكَّر الغُزاة في السيطرة على الهنود الحمر من السكان الأصليين.. لكنهم فشلوا في استعبادهم.. فلم يتورعوا عن القضاء عليهم.. وهكذا وقعت واحدة من أبشع جرائم الإبادة الجماعية في التاريخ.

شاحنات «أطفال للبيع»

وكان اكتشاف مناجم الذهب والمزارع الشاسعة في كولورادو وغيرها من ولايات الذهب وبالاً على الهنود المساكين.. إذ دفعت رغبة البيض المجرمين في الحصول على أيدي عاملة رخيصة إلى تنشيط أخس وأقذر تجارة في التاريخ بأمريكا.. وهي خطف الأطفال والشباب لاستعبادهم!

(١) الروابي جمع رابية.. والرابية هي المكان الخصب المرتفع عن الأرض قليلاً.. وبه زرع..

وهكذا نشطت تجارة خطف أطفال الهنود من مختلف مناطق أمريكا.. وكانت صحف تلك الفترة تمتلئ بصور الشاحنات المكتظة بأطفال الهنود الحمر المتجهة عبر الطرقات الريفية إلى أسواق العبيد في "سكرامانتو" و"سان فرانسيسكو" ليتم بيعهم إلى أصحاب المناجم والمزارع.. ومع نهاية القتال في سنوات الاحتلال الأول ازداد الإقبال على خطف الفتيات - بصفة خاصة- فَهُن يقدمن خدمة مضاعفة " للسادة البيض" العمل الشاق نهاراً.. والجنس الإجباري ليلاً.

وأما الآباء الهنود المساكين فإن الغضب والأسى.. الناجم عن خطف واغتصاب واستعباد فلذات أكبادهم.. كان معناه أنهم - في نظر الأسياد البيض - "عناصر شغب" تستحق الإعدام فوراً وبلا محاكمة!!

وبذلك تحول الخاطفون إلى "أبطال وطنيين أمريكيين" يساهمون في التخلص من "المشاغبين الهنود" الذين يشكلون خطراً داهماً على "أمن الدولة" الأمريكية الناشئة.

ويقول المؤرخون أن هذه القرصنة وجدت من "يقننها" ويضفي عليها الشرعية التامة عبر قانون أصدره برلمان ولاية كاليفورنيا في أول جلسة تشريعية له في عام ١٨٥٠م وأصبح خطف الهنود الحمر واستعبادهم بموجب ذلك التشريع عملاً قانونياً يستحق فاعله الثناء والتكريم.. حتى أنه كان هناك قانون أمريكي خاص نرصد من خلاله أبشع مظاهر تعامل المستوطنين مع الهنود هناك.. وظل هذا القانون ساري المفعول حتى عام ١٨٦٥ وكان ينص على إعطاء الأمريكي الأبيض مكافأة مجزية إذا قدم لأي قسم شرطة بالولايات المتحدة "فروة رأس هندي أحمر"!!!

السُخرة حتى الموت

وبموجب تعديلات أضيفت عام ١٨٦٠م تم إجبار عشرة ملايين هندي أحمر على قيام بأعمال "السخرة حتى الموت " ولم تمض سنوات على هذا التشريع الإجرامي حتى ضاق حاكم الولاية بيتر بيزنت ذرعاً "بالسُخْرة".. فوجه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها:

"إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت من ذهب.. والذي يعمل طوال النهار.. لا يستطيع أن يسهر طوال الليل لحراسة أملاكه.. وليس أمامه خيار آخر سوى شن حرب إبادة.. إن حرباً قد بدأت فعلاً.. ويجب الاستمرار فيها حتى "ينقرض الجنس الهندي تماماً" !!!

وهكذا أباد "السادة البيض" ١١٢ مليون هندي أحمر.. وأُبيدت معهم حضارات "المايا" و"الأزتيا" و"البوهاتن" وغيرها لإقامة أمريكا زعيمة النظام العالمي الجديد.. رغم أن بعض المؤرخين الأمريكيين يحاول التقليل من أعداد الضحايا زاعمين أنهم حوالي مليونين فقط.. وفي إحصاء عام ١٩٠٠م قللوا الرقم إلى مليون لا غير.. وهنا نتوقف لنتساءل سؤالاً بديهياً: حتى ولو كان الأمر مليوناً فقط.. فهل قتل مليون نفس أمر هَيِّن؟!!!

أساليب الإبادة

ولم "يتورع" السادة البيض مؤسسو الولايات المتحدة الأمريكية عن استخدام أحط الوسائل وأخس السُبل للقضاء على الهنود الحمر.. حتى أن الأرقام تقول لنا أن ٨٠٪ على الأقل من هنود "كاليفورنيا" أبيدوا خلال عشرين عاماً فقط.. وهلك الباقون بسبب العمل الشاق حتى الموت "بالسُخْرة" في سبيل رفاهية "السادة" البيض.

ولعل أشهر الوسائل التي اتبعها المستوطنين للقضاء على الهنود هي:

- تسميم آبار المياه التي يشرب منها السكان الأصليون..
- حقنهم بالفيروسات وجراثيم أشد الأمراض فتكاً مثل الطاعون والتيفود والجدري ومسببات السرطان ..إلخ

كما يحكى المؤرخون الأوروبيون المنصفون قصصاً يشيب لهولها الولدان.. فقد كان الغزاة البيض يشعلون النار في أكواخ الهنود.. ويقيمون الكمائن حولها.. فإذا خرج الهنود من أكواخهم هاربين من الحريق.. يكون رصاص البيض في انتظار الرجال منهم.. بينما يتم القبض على الأطفال والنساء أحياء لاتخاذهم عبيداً واغتصابهم جنسياً أيضاً.. وكتب أحد الهولنديين قائلاً: "انتزع البيض

بعض الأطفال الهنود الصغار من أحضان أمهاتهم وقطعوهم إرباً أمام أعينهن.. ثم أُلقيَت الأشلاء في النيران المشتعلة أو النهر.. وربطوا أطفالاً آخرين على ألواح من الخشب ثم ذبحوهم كالحيوانات أمام أعين الأمهات.. إنه منظر ينفطر له قلب الحجر - كما يقول الهولندي الراوي نفسه - كما ألقوا ببعض الصغار في النهر.. وعندما حاول الآباء والأمهات إنقاذهم لم يسمح لهم الجنود بالوصول إلى شاطئ النهر.. ودفعوا الجميع صغاراً وكباراً بعيداً عن الشاطئ ليغرقوا جميعاً.

والقليل جداً من الهنود كان يمكنه الهرب.. ولكن بعد أن يفقد يداً أو قدماً.. أو يعيش ممزق الأحشاء برصاص البيض.. هكذا كان الكل إما ممزق الأوصال.. أو مضروباً بآله حادة أو مشوهاً بدرجة لا يمكن تصور أسوأ منها.

وتم نقل أعداد هائلة من العبيد الهنود إلى جزر الهند الغربية للعمل بالمزارع الشاسعة هناك أو لبيعهم لآخرين.. كما شُحن مئات الألوف منهم شمالاً إلى نيو إنجلاند و "نيويورك" حيث مقر الأمم المتحدة.. وتمثال "الحرية" المزعوم !!

وكان المؤرخ "لاس كاساس" الذي فضح جرائم الأسبان في أمريكا الجنوبية بكتابه الشهير "تدمير الهنود الحمر" قد أثار القضية أمام المحاكم الأسبانية.. فلجأت الحكومة هناك إلى تهدئة الرأي العام الثائر بإصدار قانون يمنع استعباد الهنود بشكل شخصي.. لكن "النصوص" - كما يقول لاس كاساس - لم تعرف سبيلها إلى التطبيق الواقعي أبداً في الأمريكتين.. وانتشر في كل أمريكا الجنوبية كذلك نظام بمقتضاه يسيطر المالك الأبيض لقطعة أرض على كل الهنود الذين يعملون فيها.. أي رقيق الأرض بدلاً من الرق الشخصي.

ملخص مذابح إبادة الهنود الحمر[1]

ثارت بعض قبائل الهنود إزاء ما يتعرضون له من مذابح يومية.. وفي كل مكان .. على يد مستعمريهم الدخلاء.. ومن أشهر تلك المذابح:

- مذبحة "خليج ساند" في نوفمبر ١٨٦٤. على يد القائد البريطاني الكونيل "شفنجتون"
- "مذبحة كاستر" عند "ليتل بيج هورن" ووقعت أحداثها خلال الفترة من ٢٥ إلى ٢٦ يونيو ١٨٧٦ بين مقاتلين متحالفين من الحمر من قبائل لاكوتا

(١) نقلاً عن موسوعة "تاريخ العالم" لـ "وليام لانجر".

وشايان الشماليين.. وأراباهو من جهة.. وفوج الفرسان السابع في الجيش الأمريكي من جهة أخرى.. وقعت قرب نهر لتل بيج هورن شرقي مونتانا.

المعركة اكتسبت شهرة كبيرة حتى باتت أشهر معارك حرب الهنود الحمر وقد سجلت المعركة نصراً مهماً لصالح الهنود الحمر على فوج الفرسان الذي كان تحت قيادة «جورج أرمسترونج» الذي قُتِلَ في المعركة.. ورغم شهرة المعركة إلا أنها لم تكن المعركة التي وقع فيها أكبر عدد من الضحايا في قوات الولايات المتحدة على يد الهنود الحمر.. حيث أن أكبر عدد من الضحايا في قوات الولايات المتحدة وقع في معركة واباش سنة ١٧٩١ لكن على كل حال فقد تفاوتت تقديرات الضحايا من الهنود الحمر بين ٣٦ إلى ١٣٦ قتيل مقابل ٢٦٨ قتيل في الطرف الأمريكي.

- في أكتوبر ١٨٧٧م هزم "هنود نيزبرسيه" بقيادة زعيمهم "جوزيف" وأجُلوا إلى مناطق الهنود.
- ثم حدثت آخر وأهم ثورات الهنود في السنوات ١٨٨٢- ١٨٨٦م عندما أشعلوا المقاومة في أريزونا ونيو مكسيكو تحت قيادة "فيكتوريو وجيرونيمو" المحاولات التي بذلت لوضعهم في أماكن مخصصة لهم كانوا يرون أنها لا تناسبهم... لكن في عام ١٨٨٦م ورغماً عنهم تمَّ ترحيل جميع الهنود إلى المناطق الهندية أوالأماكن المخصصة لهم.
- وهكذا أُسدل الستار عن السكان الأصليين لأمريكا.. ولم يتبق منهم حالياً إلا أعداد ضئيلة جداً.. يستوطن معظمهم بلدان أمريكا الجنوبية.

❖❖❖